الكرازة وحركة ما بعد الحداثة

تقديم الإنجيل المسيحي في عالم ما بعد الحداثة

بقلم: ماهر صموئيل

يتخذ الكثير من أعظم المدافعين المسيحيين في عصرنا موقفًا سلبيًا من حركة ما بعد الحداثة postmodernism. ونظرًا لأنهم يَرَوْن في ما بعد الحداثة تهديدًا للمسيحية، قد يُفَضِّلون الحداثة بتركيزها على العقل والحق الموضوعي. إلا أن هذا المقال يهدف إلى إظهار أن كلًّا من الحداثة وما بعد الحداثة، باعتبارهما فلسفتين مختلفتين، تخلقان تحديات مختلفة وكذلك فرصًا مختلفة للكارز في تقديمه للإنجيل. ويركز المقال على ما تخلقه حركة ما بعد الحداثة على وجه الخصوص من فرص للكرازة، رغم كل ما تطرحه من تحديات.

وهو أمر مهم لأنه يبين أولًا أن الإنجيل المسيحي قادر على عبور الثقافات، أي أنه ما من ثقافة بعينها تمثل شرطًا مسبقًا للإنجيل حتى يكون فعالًا. وإن كان الأمر كذلك، لَأَضْعَفَ الإنجيل إضعافًا شديدًا. وهو مهم أيضًا لأنه يحفز نوعًا من النضج الذي يساعد المسيحي على مسايقة رسالة الإنجيل في أي ثقافة. فرسالة الإنجيل تبدأ في الواقع من حيث يقف الشخص فكريًا، كما فعل الرب يسوع، وليس من مجموعة أفكار يعتنقها الكارز. ومن هذا المنظور يتمحور الإنجيل حول الشخص. فهو لا يسعى لإقناع الناس بأفكار بل لتغيير حياتهم.

ويناقش المقالُ تكوينَ ١–١١ بالتركيز على الصلة التي يرسمها الكتاب المقدس بين الثقافة والهوية البشرية بوصفها صورة الله (*imago Dei*)، ثم يبين ما يعانيه الوضع البشري من تشتت وشعور عميق بالضياع نتيجةً لرفضِ الله. ثم يستعرض المقال بعض المزاعم الأساسية لحركة ما بعد الحداثة ونوعية التحديات التي تطرحها أمام المسيحية. وأخيرًا، نبين بالحجة أن الأمور التي يركز عليها أنصار ما بعد الحداثة، ألا وهي عدم ثبات الطبيعة البشرية، وقصور العقل، وغياب الحق الموضوعي والواقع الموضوعي، ومحدودية اللغة، تتشابه تشابهًا عميقًا مع القصة الكتابية المسجَّلة في تكوين ١–١١. وبالأخذ في الاعتبار هذا التشابه الفلسفي بين الكتاب المقدس وحركة ما بعد الحداثة، سنناقش فيما تبقى من المقال نصائح عملية عن كيفية تقديم الإنجيل المسيحي في عالم ما بعد الحداثة.

صورةُ الله والتكليف الثقافي[1]

في تكوين ١: ٢٦، ٢٧ نبلغ ذروة قصة الخلق، خَلْق الإنسان على صورةِ الله. لقد أخرج الله ترتيبًا من الفوضى. وأعد كل شيء ليُجَهِّز الأرض لمشروعه الجديد، مشروع الإنسان، ولكننا في عدد ٢٨ نجد التكليف الثقافي. لقد خُلِقَ الإنسان على صورةِ الله:

- فمن ناحيةِ التكوين، البشر أرواح في أجساد، فهم كشَبِهِ الله الذي هو نفسه روح.
- ومن ناحية العلاقات، هم ذكر وأنثى، أي أنهم قادرون على الدخول في علاقة حرة واعية حميمة مع بعضهم البعض لأنهم مخلوقون كشبهِ الله العلاقاتي المثلث الأقانيم.
- ومن ناحية الوظيفة، هم مخلوقون على صورةِ الله ليكونوا ممثليه على الأرض، وليتسلطوا، وليخلقوا الحضارة.

إن الهدف النهائي من خلق الإنسان هو أن يحيا في علاقة حميمة مع الله في حضوره، ناقلًا طبيعة الله الروحية والأخلاقية غير المنظورة، التي هي محبة ونور، إلى العالم المادي المنظور من خلال الثقافة والحضارة. والنتيجة، تتحقق قدرات الإنسان الكامنة نظرًا لما ينعم به من حرية خلق الثقافة من خلال تعبيراته الإبداعية، والفكرية، والفنية. ولكن مجد الله يتجلى أيضًا لأن هذه التعبيرات الثقافية محض انعكاس لطبيعةِ الله الأخلاقية. ويناقش إميل برونر Emile Brunner فكرة سفر التكوين أن الإنسان مُكَلَّف بخلق الثقافة والحضارة:

> لأن الإنسان، والإنسان وحده، خُلِقَ على صورةِ الله، وللشركة مع الخالق، إذَن يمكنه، بل يجب عليه أن يُخْضِع الأرض لنفسه، ويجب أن يحكم غيره من سائر المخلوقات جميعًا. وما يتضمنه هذا الواجب من دعوة لخلق الحضارة ليس جوهر الإنسانية الحقيقية، بل افتراضها السابق الضروري.[2]

ويحدث السقوط في تكوين ٣ عندما يختار الإنسان، ضدًا لتصميمه ومحدوديته، أن يتولى بنفسه دور الله في تعريف وتحديد الخير والشر. وهو ما يبلغ أَوجَهُ في قايين الذي يرفض خطة الله الفدائية التي تقوم على الذبيحة الحيوانية. ويخرجُ قايين من لَدُنِ الله ويبدأ فورًا في تأسيس حضارة بدونِ الله. فهو يبني مدينة، ويسميها حنوك على اسم ابنه. وتعكس هذه المدينة تشوه الطبيعة البشرية كما يتضح في عنف لامك. وإذ يبدأ لامك

---

[1] "يُشتق مصطلح "ثقافة" "culture" [في الإنجيليزية] من كلمة *colere* اللاتينية التي تعني- "يزرع، أو يحرث، أو يراعي"، ومن ثم الصيغة المؤنثة *cultura* تعني "الحرث، أو العناية بالمحاصيل والماشية culture، أو الزرع". وبمرور الوقت أصبح مصطلح "ثقافة" "culture" يشير إلى الأشخاص الراقين والمتعلمين".
Laura Thompson, *The Secret of Culture*, consulting ed. Anthony F. C. Wallace (New York: Random House, 1969), 4.

[2] Emile Brunner, *The Christian Doctrine of Creation and Redemption* (Eugene, OR: Wipf & Stock, 2014), 67.

فكرة تعدد الزوجات، يرفض الزواجَ كما قَصَدَه الله ويحاول أن يطيح بالبنية الاجتماعية الأصلية. وبينما تضم المدينة اختراعات كالموسيقى والشعر، فهي لا تحوي مذبحًا، ولا هيكلًا، ولا إلهًا. وتصبح الحضارة بدونِ الله غير محتملة إذ تمتلئ الأرض من العنف والفساد، وفي النهاية يفقد الإنسان إنسانيته نفسها. ويقول برونر في هذا الصدد:

> عندما يفتّش الإنسان عن غايته العليا في الثقافة والحضارة، ويضعها محل الله، ويُحَوّلها إلى شيء مطلق، تكون جرثومة اللاإنسانية قد تسللت إلى حياته. فالحضارة الحقيقية والثقافة الحقيقية لا تنمو إلا عندما يُوَجَّه الإبداع والنشاط الثقافي ويُنَظَّم من مركز يتسامى عن الثقافة.[٣]

وأخيرًا تقتضي الضرورة أن يتدخل الله بالدينونة عن طريق الطوفان، فيقضي على الإنسان وحضارته. ويعيد تشغيل مشروع الإنسان، فيخلق آدم جديدًا، أي نوحًا. ويجددُ الله التكليف الثقافي في تكوين ٩: ١. ولكن المؤسف أن نوحًا يكرر النمط الذي بدأه آدم وحواء، وبنهاية الأصحاح التاسع نصادف الموضوعات المألوفة في سقوط الإنسان: شجرة، عري، لعنة. وكما بلغ سقوط آدم أَوْجَهُ في قايين، يبلغ سقوط نوح أَوْجَهُ في نمرود الذي يبني مدينة مثل قايين.[٤]إلا أن المدينة هذه المرة تتميز ببرج بابل. وإذ يُحتمَل أنه من أقدم نماذج ناطحات السحاب في العصور القديمة، فمن المفترض أنه يمثل القوة والوحدة، رغم أنه يمثل أيضًا الانفصال عن الله. ويُقصَد به فِعْل تمرد على الله، في محاولة لتوكيد كلٍّ من الوحدة والانقسام، أي أنه يبتغي الوحدة بين الإنسان والإنسان، ولكن الانقسام بين الإنسان والله. وفي تكوين ١١: ٧، يُحبِطُ الله خطط الإنسان لبناء البرج بإعطاء البُناة ألسنة مختلفة. ونتيجةً لهذا الحاجز اللغوي يعجزون عن التواصل والاتحاد، وفي النهاية يتشتتون تمامًا. وفي ضوء هذا القضاء، يمكننا القول بأن الله كان يكشف مستقبل البشرية. ففي محاولة البشر الفاشلة أن يتحدوا مع بعضهم البعض بينما ينفصلون عن الله، يتشتتون ويرتبكون.

ما بعد الحداثة مُقابل الحداثة

يُبْرِز أليستر ماجراث Alister McGrath في كتابه "الدفاعيات المجردة" *Mere Apologetics* فترة تاريخية شَهِدَتْ أكبر تأثير للحداثة، ويشرح بعض المزاعم الأساسية للحداثة:

> عادةً ما يُطلَق على البيئة الثقافية التي سادت الغرب منذ حوالي سنة ١٧٥٠ إلى ١٩٦٠ مصطلح- الحداثة modernity. وقد قام هذا الفكر على الاعتقاد بشمولية العقل البشري، أي أن هناك عقلًا مشتركًا يشمل جميع الناس والأزمنة، وهو قادر على إدراك أعمق أنظمة العالم. وكان العقل_هو -المفتاح الذي كشف

[٣]المرجع السابق، ٦٨.
[٤]يمكننا أن نستدل من تكوين ١٠ على أن نمرود لعِبَ دورًا محوريًا في بناء المدينة، ومن ثم البرج.

غوامض الحياة، وكانت الحجة هي أداته في الإقناع. وأصبحت الحجة العقلية الأداة الموثوق بها في هذه الحقبة الثقافية.[٥]

ومن ثم يبين شرح ماجراث كيف أن العقل حل محل الله نوعًا ما في عصر ما بعد التنوير. فالإنسان لا يؤمن أن الحق موجود فحسب، بل أنه يمكن تقييمه وفهمه بالكامل عن طريق العقل. ومن ثم يمكن التغلب على كل مشكلات الإنسان بعقلانية مُوحَّدَة موضوعية، مع التركيز بوجه خاص على المنهج العلمي كنموذج للتفكير العقلاني. وعلى النقيض من ذلك، الحق الموضوعي لا وجود له في حركة ما بعد الحداثة. وهو ما يُعَبِّر عنه چيه. پي. مورلاند J. P. Moreland على هذا النحو:

تُمَثِّل [حركة ما بعد الحداثة] شكلًا من النسبية الثقافية بشأن أمور مثل الواقع، والحق، والعقل، والقيمة، والمعنى اللغوي، والذات، وغيرها من الأفكار. ففي منظور ما بعد الحداثة ليس هناك ما يُسَمَّى الواقع الموضوعي، ولا الحق، ولا القيمة، ولا العقل، وما إلى ذلك. كل هذه تكوينات اجتماعية، ومنتجات الممارسات اللغوية، ومن ثم فهي نسبية لا بالنسبة للأفراد، بل بالنسبة للمجموعات الاجتماعية التي تشترك في قصة واحدة... ففي نظر أتباع ما بعد الحداثة، إنْ زَعَمَ المرء أنه يمتلك الحق بالمعنى التطابقي، فهذا الجزم هو نوع من التسلط الذي يقهر كل من نحكم عليه بأنه لا يمتلك الحق.[٦]

ومن ثم ترفض حركة ما بعد الحداثة فكرة أن معرفة الحق الموضوعي في متناول البشر. وهي لا تكتفي بذلك، بل تقول أيضًا بأن أي زعم بالقدرة على معرفة الحق هو نوع من القهر وهو لعبة سلطة. ويصف كڤين ڤانهوزر Kevin Vanhoozer موقف ما بعد الحداثة المتشائم في سخريتها من تفاؤل الحداثة. ومن هذا المنظور، ما كان يمنح الأمل لأتباع الحداثة باعتباره الحل النهائي لمحنة البشر، أي العقل، يمثل قيدًا عنيفًا عند أتباع ما بعد الحداثة:

إن كان العالم الحديث قد تَمَيَّزَ باعتقاد متفائل في العقل لحل مشكلاتنا، فعالم ما بعد الحداثة يتميز بفقدان هذا الإيمان. فمفكرو ما بعد الحداثة يرون الحداثة وكل ما يتعلق بها أساطير، منتجات بشرية. لقد اعتمدت الحداثة على أساطير كفاءة العقل الشاملة، والتقدم البشري، وقدرة البشر على بلوغ الكمال. ولكن فلسفة ما بعد الحداثة تشكك في كل هذه الافتراضات. ففي رأي أتباع ما بعد الحداثة، كل التفكير البشري

---

[5] Alister McGrath, *Mere Apologetics: How to Help Seekers and Skeptics Find Faith* (London: SPCKPublishingf, 27.
الترجمة العربية مأخوذة من أليستر ماجراث، **الدفاعيات المجردة**، ترجمة ماريانا كتكوت (القاهرة، مصر: RZIM, Middle East، ٢٠١٣)، ٢٩.

[6] J.P. Moreland, "Truth, Contemporary Philosophy, and the Postmodern Turn." *Journal of the Evangelical Theological Society* 48, no.1 (March 2005): 77-88.
نظرية الحق التطابقية the correspondence theory of truth تقول بوجود واقع موضوعي يمكن للبشر التعبير عنه في صورة فرضيات.

> معتمد على موقعنا في الثقافة والتاريخ، وعلى اللغة نفسها. وكل المنظورات، وخاصةً منظورات الذَّكر العقلاني الغربي البورجوازي، محدودة ونسبية. فالإنسان ليس homo sapiens، أي الحيوان الحكيم أو العارف، بل الحيوان مبتدع الأساطير. فالإنسان يخلق القيم، إن الإنسان يصنع نفسه. فبدلًا من محاولة اكتشاف طبيعتنا الثابتة، تميل حركة ما بعد الحداثة إلى تأسيس أفكارها على البنائية الاجتماعية social constructivism.[٧]

وهكذا يُبْرِز ڤانهوزر إدراك ما بعد الحداثة لمحدودية البشر. فليس كل ما في الواقع يمكن فهمه وتفسيره بالاستقلال عن الفرد البشري، بل على العكس، ما نظنه أنه الواقع ليس إلا فهمنا الذاتي للعالم الخارجي.

التشابه الفلسفي بين ما بعد الحداثة والمسيحية

تتشابه هذه المزاعم الأساسية لحركة ما بعد الحداثة بصفة عامة مع حالة البشر بعد السقوط كما يصفها الكتاب المقدس. ويمكن التركيز على أربعة عناصر بصفة خاصة في حركة ما بعد الحداثة وفحصها في ضوء الكتاب المقدس: عدم ثبات الطبيعة البشرية، قصور العقل، غياب الواقع والحق الموضوعي، محدودية اللغة.

عدم ثبات الطبيعة البشرية

يرفض أتباع ما بعد الحداثة فكرة وجود ذات بشرية ثابتة مخلوقة إلهيًا. ومن ثم، الطبيعة البشرية ليست شيئًا يُكتشَف بل يُخْلَق. ويؤكد ميشيل فوكو Michel Foucault هذه الفكرة في دراسته لطبيعة البشر الجنسية. وفيما يلي شرح "موسوعة ستانفورد الفلسفية" *The Stanford Encyclopedia of Philosophy* لفكرة فوكو:

> آخر كتابين بقلم فوكو هما محاولة للمساهمة في مهمة إعادة النظر في علم الأخلاق، ولكنهما أيضًا تكملة لمحاولته أن يعيد النظر في الفرد. فالتركيز حاليًا مُنْصَبّ على أشكال الفهم التي يخلقها الأفراد عن أنفسهم والممارسات التي بها يُغَيِّرون حالة وجودهم. وفي دراسته لعلم الأخلاق اليوناني القديم، استمر يتتبع فكرته بأن ليس هناك ذات حقيقية يمكن فهم غوامضها وتحريرها، ولكن الذات شيء خُلِقَ، ولا بد أن يُخْلَق.[٨]

في الطرح السابق بخصوص تكوين ١–١١، استنتجنا أن الكتاب المقدس يُعَلِّق أهمية كبيرة على الطبيعة الإنسانية وعلاقتها بدور الإنسان في خلق الحضارة. وتحديدًا لأن الإنسان مخلوق على صورة إله ثالوثي، إله

---

[7] Kevin Vanhoozer, *Theological Anthropology*. An unpublished lecture given at Trinity Evangelical Divinity School. 2013. Course: ST5102.

[8] Gutting, Gary and Oksala, Johanna, "Michel Foucault", *The Stanford Encyclopedia of Philosophy* (Summer 2018 Edition), Edward N. Zalta (ed.), accessed November 20, 2018, <https://plato.stanford.edu/archives/sum2018/entries/foucault/>.

طبيعته الحب والنور، فالإنسان منوط بخلق حضارة تعكس طبيعة الله الأخلاقية. وأتباع ما بعد الحداثة، ومنهم فوكو، مُتَّسِقون مع أنفسهم تمامًا في رفضهم لله. فهم يدركون أنه بدون قصة يُخلَق الإنسان بداخلها على صورةِ الله، يُفْقَد ثبات الطبيعة البشرية. فضلًا عن ذلك، هم يدركون التداعيات الجذرية التي يَجُرُّها هذا الفقدان على كلٍّ من الحضارة والثقافة والأخلاق. فكما أسَّسَ لامك تعدد الزوجات اعترافًا منه بأن طبيعة البشر الجنسية بدونِ الله تصبح محض رغبة شخصية، هكذا يدرك أتباع ما بعد الحداثة أيضًا أنه بدون طبيعة بشرية ثابتة، الطبيعة الجنسية ليست سوى ميول الفرد البشري الخاصة.

قصور العقل

أنصار ما بعد الحداثة على وعي عميق أيضًا بقصور العقل البشري. وهو ما يصفه فوكو وصفًا متطرفًا: "العقل هو لغة الجنون العليا".[9] وعلى المسيحيين أن يَعُوا أنه رغم أن العقل سمة جوهرية في الطبيعة البشرية ويجب تقديره كل التقدير، فهو ليس مفتاح كل المشكلات البشرية، كما يؤكد الحداثيون. فالمفهوم المسيحي يؤمن أنه بدونِ الله الإنسان فاسد، وهذا الفساد يشمل قدرة الإنسان العقلية. ونظرًا لهذا الفساد الذي أصاب البشر بسبب الخطية، فهم أيضًا محدودون للغاية. وكما يشرح الرسول بولس: "وكما لم يستحسنوا أن يُبقوا الله في معرفتهم، أسلمهم الله إلى ذهن مرفوض ليفعلوا ما لا يليق" (رو ١: ٢٨).

غياب الواقع والحق الموضوعي

بناءً على الاعتراف بمحدودية العقل البشري الشديدة، فإن الحق بوصفه شيئًا يُفهَم بالعقل، يُعتبَر غائبًا. فالواقع عند أنصار ما بعد الحداثة هو بناء اجتماعي ذاتي subjective social construction. ويوضح الفلاسفة أن تأكيد محدودية العقل يشير إلى مشكلة: إنكار وجود واقع وحق موضوعي هو في حد ذاته زعم من مزاعم الحق. وهكذا يسقط أتباع ما بعد الحداثة في التناقض. فعندما ينكرون معرفة أي شيء مُطْلَق عن الحق أو الواقع، هم بذلك يطرحون أحد مزاعم الحق بشأن الواقع. إلا أنهم بإنكار وجود الواقع متسقون مع التشخيص الكتابي لحالة الإنسان بعد استغنائه عن الله. فحسب ما يقوله الرسول بولس والرسول يوحنا، واقع العالم بعد رفضِ الله مزيف ويقوم بالكامل على الخداع. علاوة على ذلك، أكَّدَ أنبياء العهد القديم مرارًا أن الحق غائب من الأرض. فالكتاب المقدس لا يقول إنه لا وجود لشيء يُدعى الحق، ولكن في عالَم بدونِ الله الحق غائب. وغاية تدبيرِ الله الفدائي هي استرداد الحق. لذا، عندما يفهم ويعترف أنصار ما بعد الحداثة أن الإنسان عاجز عن الوصول إلى الحق في عالم بلا إله، هم يتفقون مع القصة الكتابية.

[9] Michel Foucault, *Madness and Civilization: A History of Insanity in the Age of Reason* (New York: Vintage Books, 1988), 63.

محدودية اللغة

بناءً على ما طرحنا أعلاه، من المنطقي أن نناقش فهم أتباع ما بعد الحداثة للُّغة. والفكرة البنيوية الكلاسيكية عن اللغة هي أنها تتكون من دَوال signifiers ومدلولات signified، حيث الدال هو الصوت المنطوق، والمدلول هو الشيء الموجود في الواقع الذي يشير إليه الصوت المنطوق. وكما ذكرنا آنفًا، مشكلة أتباع ما بعد الحداثة أنهم لا يعتقدون أننا قادرون فعليًا على معرفة الواقع. ومن ثم فالمدلولات التي نظن أننا ندلل عليها في الواقع هي محض فهمنا الذاتي للواقع. ومن هذا المنظور، كل ما نزعم أننا نعرفه عن الواقع هو محض تعبير لغوي عن خبرتنا الذاتية. وهو ما يشرحه ڤانهوزر هكذا: "يكشف كلٌّ من [ريتشارد Richard] رورتي Rorty و[جاك Jacques] دريدا Derrida عن هذه المفارقة في المتافيزيقا: المتافيزيقي ينبري للحديث عن الحقيقي ولكن ينتهي به الأمر متحدثًا عن نفسه".[10] ويرى أتباع ما بعد الحداثة أن كل المزاعم المختصة بالواقع الموضوعي هي فعليًا مزاعم عن الأنا الذاتية. إلا أنه تجدر الإشارة إلى أن أتباع ما بعد الحداثة ما زالوا يفهمون اللغة باعتبارها تقوم على دَوال ومدلولات. ولكنهم يفهمون المدلولات على أنها نفسها دَوال أخرى. وإن كان كل ما يمكننا أن نشير إليه هو مجرد خبرتنا الذاتية وهذه الخبرة الذاتية تُتَرجَم إلى دَوال لغوية ذات معنى، إذَن في محاولتنا أن نشير إلى الواقع، نشير إلى الترجمة اللغوية للخبرة الذاتية. والدَوال تشير إلى دَوال أخرى، وهكذا تمتد سلسلة الدَوال إلى ما لا نهاية. وهو ما يشرحه ڤانهوزر كما يلي:

> تنبأ نيتشه، شفيع ما بعد الحداثة، نبوة دقيقة: إن كان الله قد مات، إذَن كل شيء محض تفسيرات. وكل الصياغات لا تصل إلى الحقيقة أبدًا. فما من صياغة واحدة يمكن اعتبارها نهائية. وكما هو الحال في التفسير، هكذا في الحياة: كل شيء يصبح مفتوح النهاية.[11]

وهكذا فاللغة شديدة المحدودية في الفهم ما بعد الحداثي. ويمكن تفسير ما يحدث نتيجةً لبرج بابل (تكوين ١١) في تَوَافُقه مع فهم ما بعد الحداثة لمحدودية اللغة. فالله يتدخل ويغير لغات البشر الذين يبنون برج بابل، كاشفًا أعمق مشكلة تنشأ عن رفضِ الله: الحالة البشرية بعد إعلان موتِ الله حالة تشتت وارتباك. وكما يوضح أنصار ما بعد الحداثة، يضيع الواقع الموضوعي، وتفقد اللغة نفسُها قدرتَها على أن تكون طريقة تواصل للتعبير عن هذا الواقع. وتصبح ذاتية تمامًا، ومثل بناة برج بابل، يرثي أتباع ما بعد الحداثة شعورهم العميق بالضياع والتفكك.

---

[10] Kenvin Vanhoozer, "Pilgrim's Digress: Christian Thinking on and about the Post/Modern Way," in *Christianity and the Postmodern Turn: Six Views*, ed. By Myron B. Penner (Grand Rapids, MI: Brazos Press, 2005), 75.

[11] المرجع السابق، ٧٨.

نصائح عملية للكرازة لأتباع ما بعد الحداثة

رَكِّزْ على البعد العلاقاتي لا العقلاني فقط

رغم أن الإيمان المسيحي عقلاني، فهو علاقاتي في صميمه. والخلاص المسيحي ليس قبولاً عقلانيًا لحقائق مُثْبَتة عن يسوع، ولكنه قبول يسوع نفسه مُخَلِّصًا والثقة فيه. ومن ثم، التركيز على جمال شخص يسوع وعلى حاجة البشرية له أكثر جاذبية لأتباع ما بعد الحادثة من إثبات حقائق الإنجيل عقلانيًا. وقد بيَّنَتْ بعض الدراسات الحديثة التي أُجْرِيَتْ على طلاب الجامعات الأمريكيين أنه في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين كان الطلاب أكثر ميلاً لقبول الإنجيل لأنهم كانوا يقتنعون به عقليًا، ولكن بدايةً من تسعينيات القرن العشرين، غالبًا ما يُرجِعون قبولهم لإنجيل المسيح إلى أنهم أحبوا شخص يسوع، أو صاروا جزءًا من جماعة دافئة مثل الكنيسة، أو اختبروا تأثير مقابلة يسوع المُفَرِّح والمُحَرِّر. وهو ما يمثل تحولاً من نموذج الإيمان ثم الانتماء إلى نموذج الانتماء ثم الإيمان. وهو ما لا يعني طبعًا أنه ينبغي علينا أن نهمل العقل ولا نحاول الدفاع عن الإيمان عقلانيًا، ولكنه يبين أنه علينا ألا نفعل ذلك إلا عندما تقتضي الحاجة. فيجب أن ننتبه ونلاحظ متى يحتاج المستمع إلى أكثر من مجرد الإقناع العقلي.

شارك بالقصة

يتمتع الكارز المسيحي بميزة عظيمة من حيث إن الحق المسيحي مُعْلَن في قصة لا في حجج أو فرضيات مجردة. صحيح أنه يقوم على حقائق ويمكننا أن نقيم حججًا عقلانية وتاريخية تؤكده، إلا أنه في صميمه قصة. فالحق المختص بيسوع مُقَدَّم في قصة، وكل الحق المختص بالله مُقَدَّم في قصة. لذا، عندما يقول أتباع ما بعد الحداثة: "لا تخبرني بأنك تمتلك الحق، ولكن شاركني بقصتك"، ليس من الحكمة أن نسوق الحجج لإثبات موضوعية الحق المسيحي، بل الأفضل عندئذٍ أن نشارك حق القصة الكتابية في حكاية.

اكرز بالحياة الأفضل، لا بحياة الكسل الأبدي

كما بيَّنا آنفًا، لا يؤمن أتباع ما بعد الحداثة بطبيعة بشرية ثابتة قابلة للاكتشاف، ومعنى للحياة. ولكن مع ذلك، كل البشر يتوقون في أعماقهم إلى اكتشاف ذواتهم الفريدة وعيش حياة لها معنى. وهذه هي جاذبية إنجيل المسيح في جوهره. فنحن نكرز بأن المخلص، يسوع المسيح، يأخذ الخاطئ في رحلة شفاء تسترد تَفَرُّد البشرية المُشَوَّه غير المتحقق، وغرضها المفقود. لذا، علينا ألا نختزل إنجيل المسيح في تذْكَرَة دخول مجانية إلى السماء أو وثيقة تأمين ضد جهنم. وهذا الإنجيل هو ما يجذب أتباع ما بعد الحداثة الذين يركزون على الخبرة الشخصية.

علينا ألا نكرز عن حقائق مستقبلية مجردة، بل يجب أن ندعو أتباع ما بعد الحداثة إلى اختبار حياة مُشْبَعة. وبهذا المنهج يستطيع الكارز أن يُوَصِّل لأتباع ما بعد الحداثة نوعية الفرح التي يتمتع بها كما يختبرها الفرد.

الخاتمة

في الجزء الأول من هذا المقال طَرحْتُ أفكارًا حول تكوين ١–١١. وفي ضوء هذه الأفكار، يلاحظ المرء أولًا أنه عقب السقوط لم يرَ الإنسان قيمة لإبقاءِ الله في معرفته. فمِنْ قايين إلى نمرود نرى الطبيعة البشرية فاسدة في أعماقها، ونرى الفساد متغلغلًا في الحضارة والثقافة. ولا تُسْتَثْنى الحداثة وما بعد الحداثة من هذه الحالة لأنهما تعانيان من نفس التشوه. ولكن، إن كانت الحداثة هي بناء المدينة والبرج، فما بعد الحداثة هي الاعتراف بالبلبلة والتشتت. وأتباع ما بعد الحداثة يدركون هذا الارتباك من خلال اعترافهم بعدم ثبات الطبيعة البشرية، وقصور العقل، واستحالة بلوغ الواقع الموضوعي، وأخيرًا محدودية اللغة. ونظرًا لاعتراف أتباع ما بعد الحداثة بهذه الأمور، فهم يتفقون جوهريًا مع التشخيص الكتابي لحالة الإنسان عقب السقوط. وهذا التوافق بين الكتاب المقدس وما بعد الحداثة يتيح فرصًا للكرازة. لذا، رغم كل ما تطرحه حركة ما بعد الحداثة من تحديات، فهي تخلق فرصة للكرازة. ولانتهاز هذه الفرصة، علينا نحن المسيحيين الكارزين أن نتبنى منهجًا مناسبًا للوصول إلى عالم ما بعد الحداثة.

ماهر صموئيل
طبيب نفسي، وحاصل على درجة الماچستير في الفلسفة والدين من جامعة ترينيتي الدولية Trinity International University بولاية إلينوي، الولايات المتحدة الأمريكية.